9
سفينة الأصدقاء

مع الشمبانزى

فى أندونيسيا

تأليف : سامى البجيرمى

رسوم : محمد فايد

سَألَ مُحَمَّدٌ : « أينَ نَحْنُ ؟ » .

أجابَ الشَّمْبَانزِى :

« نَحْنُ فى جزيرة « كَالِيمَانتَان » بأندُونيسيَا » .

وفَتَحَ مُحَمَّدٌ عَيْنَيْهِ ، فوَجَدَ نَفْسَهُ علَى قِمَّةِ شَجَرةٍ ، مُطِلاً علَى غَابةٍ كَثِيفةٍ مُظْلِمةٍ .

علَى أنَّه لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَرَى إلى مَدًى بَعِيدٍ ؛ فَقَدْ كَانَتِ الأغْصَانُ العُلْيَا للأشْجَارِ مُتقارِبةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ ، حَتَّى كَأنَّها سَقْفٌ يَحْجُبُ أشِعَّةَ الشَّمْسِ عَنِ الأرضِ .

وكَانَ كُلُّ شَىءٍ مُبْتَلاً ؛ لأنَّ المطرَ يَسْقطُ هُنَاكَ كُلَّ يومٍ تَقْرِيباً ، وكَانَ الجوُّ حَارّاً ، والهَواءُ كَرِيهَ الرَّائحةِ ، وعلَى أعَالِى الأشْجَارِ كَثِيرٌ من الطُّيورِ والفَرَاشِ والقِرَدةِ والأزْهَارِ .

وصَاحَ الشَّمْبَانزِى :

« مَا أشَدَّ سُرورِى لعَوْدَتِى !! إنَّه لَبَدِيعٌ أنْ أكُونَ فى وَطَنِى فى الغَابةِ ، حَيثُ أسْمعُ حَدِيثَ القِرَدةِ ، وحَيثُ أرْتَجِحُ علَى الأغْصَانِ !! مَا أجْمَلَ الأمَاكِنَ الَّتِى تَتَّصِلُ فِيها أغْصَانُ الأشْجَارِ العَالِيةِ ، فأسْتَطِيعُ السَّيرَ عَلَيْها أيَّاماً مِنْ غَيرِ أنْ أنْزِلَ إلى الأرضِ ! ومَعَ ذَلِكَ فَلِى بَيتٌ أصْنَعُهُ مِنْ أغْصَانِ الأشْجَارِ أضَفِّرُ بَعْضَها بِبَعْضٍ ، وكُلَّمَا جَفَّتْ أوْرَاقُها ، وأخَذَتْ تَسْقُطُ بَنَيْتُ بَيتاً آخَرَ . وقَدْ كَانَ لأبِى ، فى وَقْتٍ مِنَ الأوقَاتِ ، تِسْعةٌ مِنْ تِلْكَ البُيوتِ فى مَكَانٍ واحِدٍ » .

وبَيْنَما هُمَا يَتحدثانِ ، انتزعَ الشَّمْبَانزِى جَريدةً من نَخْلةٍ ، وأخذَ يَأكُلُ مِنْ طَرْفِها الطَّرِىّ ، وقدَّمَ قِطْعَةً مِنها لمحمَّد قائلاً :

« مَا أحْلَى العَوْدةَ إلى تَناوُلِ طَعامٍ جَيِّدٍ !! » صَاحَ مُحَمَّدٌ مُنْدَهِشاً :

« طَعامٌ جَيِّدٌ !! ألمْ يَكُنْ ما يُقدَّمُ إليكَ علَى السَّفينةِ أجْوَدَ الأطْعِمَةِ وأحْسَنَها ؟ ». أجابَ الشَّمْبَانْزِى :

« أجْودُ الأطعمةِ وأحْسَنُها بالنِّسْبةِ لَكَ ! أمَّا أنا فلاَ أُحِبُّ البَيْضَ ، ولا اللحْمَ ولا السَّمكَ الَّذى تُخرِجُونَهُ مِنْ عُلَبِ الصَّفيحِ ! هُنَا أستَطيعُ أنْ أعيشَ علَى الفَاكِهَةِ وأوْراقِ الشَّجَرِ ، والمَوزِ البَرِّىِّ ، وغُصونِ الأشْجَارِ الصَّغيرةِ .. هَذِه هِىَ الأطْعِمةُ التى أُحِبُّها .

إنَّنى أدْعَى إنْسَانَ الغَابةِ وفِيها فَقَطْ أحِسُّ أنَّنى فى وَطَنِى » .

واستَطْردَ الشَّمْبَانزِى قَائلاً :

« إنَّنى هُنا أنْهَضُ عِنْدَ الفَجْرِ فأعِيشُ الحَياةَ الَّتى أُحِبُّها » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « وكَيفَ ذَلِكَ ؟ » .

قَالَ الشِّمْبَانْزِى :

« إنَّ حَياةَ جَماعَةِ الشِّمْبانزِى مُسَلِّيَةٌ ، فَأطْفَالُ الشِّمْبانزِى تَتَشَبَّثُ بأُمَّهاتِها كَمَا هو الحَالُ فى دُنْيَا الإنْسَانِ ، وإنْ كَانَتْ هَذه المَرْحَلَةُ فى حَياةِ الشِّمبانزِى قَصيرةً ؛ لأنَّ نُموَّ الشِّمْبانزِى أسْرَعُ مِنْ نُموِّ الإنْسَانِ بمِقْدارِ الضِّعْفِ .

وعِندَما يَكْبَرُ الأطْفَالُ يَبْدأ يَوْمُهم بالبَحْثِ عن الطَّعامِ ، فَنحنُ نأكُلُ مَرَّاتٍ كَثيرةً فى اليَوْمِ ، وإنْ كَانتْ وَجباتٍ خَفيفةً .

والبَحْثُ عن الطَّعامِ مَهمَّةُ الذُّكُورِ حَيثُ يَتوغَّلونَ فى الغَابةِ فَإذَا عَثَروا على أشْجارِ الفَاكِهةِ فإنَّهمْ يُرسِلونَ إشَاراتٍ للجَماعةِ ، هى عِبارةٌ عَنْ صَيحاتٍ عَاليةٍ لجَذْبِ الجَماعةِ كُلِّها لتِلْكَ المَنْطَقةِ .

وفى وَسَطِ النَّهارِ نَرْتَاحُ قَليلاً ونُمارسُ بَعْضَ الألْعَابِ ، وفى اللَّيلِ يُجَهِّزُ كُلٌّ مِنَّا فِرَاشَهُ فَوْقَ قِمَمِ الأشْجَارِ » .

ولَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ يُشَارِكُ الشِّمْبَانْزِى فى سُرورِهِ ، فَقَدْ كَانَتِ الشَّمْسُ شَديدةَ الحَرارةِ ، والهَواءُ شَديدَ الرُّطُوبةِ ، وكَانَ النَّمْلُ يَقْرُصُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيةٍ .

وقَدْ صَرَخَ مَرَّةً ؛ عِنْدَما قَرَصَتْهُ نَملةٌ ، وقَفَزَ قَفْزَةً عَاليةً كَادَتْ تُسْقِطُهُ مِنْ فَوقِ الأغْصانِ ؛ فَضَحِكَ الشِّمْبَانْزِى مِنْ ذَلِكَ وقَالَ :

« إنَّ قِمَمَ الأشْجَارِ لا تَصْلُحُ لَكَ !! فَلْنَنْزِلْ إلَى الأرضِ ! » .

ولَمْ يَكُنْ من السَّهْلِ السَّيرُ على الأرضِ ؛ لأنها كانتْ مملوءةً بالأغصانِ التَّالفةِ التى يتعثَّرُ فيها السَّائرُ ، والنَّباتاتِ الشَّائكةِ التى قَدْ تَدخُلُ أشواكُها فى الجسْمِ أو تُمزِّقُ المَلابسَ ، والغابِ الهِنْدِىُّ الذى يَنْمُو فى بَعْضِ الأماكنِ كَثيفاً ، فلا يُمكِنُ للإنسانِ المرورُ فيهِ .

وقَدْ وَدَّ مُحَمَّدٌ لَوْ أنَّ معَهُ فأساً يَقْطَعُ بها بعضَ النَّباتاتِ التى كانتْ تَعْتَرِضُ سَبيلَهُ .

وبعدَ أنْ سارَا قَليلاً ، وَصَلاَ إلى كُوخٍ منْ أكْواخِ سُكَّانِ تلكَ البلادِ ، وكانَ مَكْشُوفاً منْ ثلاثِ جهاتٍ ، فَلَمْ يَزِدْ على أنَّه سَقْفٌ مائلٌ مُقامٌ على عِصِىٍّ ، وكانَ السَّقْفُ من سَعَفِ النَّخْلِ ، فإذَا سَقَطَ المطرُ تَسرَّبَ الماءُ منْ خِلالِه .

ولَمْ يَكُنْ أحَدٌ بالكُوخِ ، فدَخَلَ مُحَمَّدٌ لِيُلقِىَ نَظْرةً على الأشْياءِ المُبْعثرةِ على أرْضِيَّتِه المُبْتَلَّةِ فرأى بَعْضَ الأوانِى الحَديديَّةِ ، أمَّا ما سِوَى ذَلكَ منْ مَلاعِقَ وصَناديقَ وأطْباقٍ ، فكانتْ جَميعُها منَ الخشَبِ .

جَلَسَ مُحَمَّدٌ على حَصيرٍ من الخَيزُرانِ لِيُشاهِدَ ما حَولَهُ .

وبعد دقيقة أو اثنتين سمع مُحَمَّدٌ أصواتاً ، ورأى صديقه الشمبانزي ينطلق هارباً ، وجرى على يديه ورجليه وما لبث أن تسلق إحدى الأشجار واقتربت الأصوات .

ورأى مُحَمَّدٌ أناساً سُمْرَ اللون ، يلبسون قطعاً من الملابس مصنوعةً من قشور الأشجار يشدُّونها حول وسطهم ، ويزيّنون أيديهم وسيقانهم بعقود من الخرز .

ولما وصلوا إلى حيث يجلس مُحَمَّدٌ نهض يستقبلهم قائلاً :

«سعدتُم صباحاً» .

كان مُحَمَّدٌ يشعر بالخوف من هؤلاء الناس الأقوياء ، الذين تبدو عليهم علامات الحزن ، ويحملون في أيديهم فؤوساً ذات أسلحة طويلة غير عريضة ، وسكاكين صغيرة وسيوفاً طويلة وسهاماً ، وقطعاً طويلة من (الغاب) .

على أنه لم يكن ينبغي له أن يخشاهم ؛ لأنهم أناسٌ طيّبون لا يميلون إلى الاعتداء على أحد .

ونظروا إلى مُحَمَّد ، ثم رمى أحدهم على الأرض حيواناً كان قد صاده وأخذ كلٌّ منهم جزءاً منه ، وتركوا الباقي لعلّ أحد الجيران يحضر ليأخذ نصيبه .

ثُمَّ تَقدَّمت امرأةٌ من مُحَمَّد قائلةً :

« إنَّكَ شيءٌ مُضحكٌ !! فمِن أينَ جئتَ ؟ ».

أجابَ مُحَمَّدٌ : « من سفينة مع الشَّمْبانْزى ! ».

وهُنا لَمحَ أحدُ الرِّجالِ الشَّمْبانْزى فوقَ قِمَمِ الأشجارِ ، فسَدَّدَ ناحيتَه أنبوبةً مُجوَّفةً من الخشبِ ، يبلُغُ طُولُها حوالَى مِترٍ ونِصفِ المِترِ ، ثُمَّ وضَعَ أحدَ طَرفَيْها فى فَمِهِ ، ونَفخَ من خِلالِها سَهْماً صَغيراً خَفيفاً ، ولكنَّ الشَّمْبانْزى كانَ أسرَعَ من الرَّجُلِ ، فقفَزَ إلى شَجرةٍ أُخرَى ، وأخَذَ يُسرِعُ من غُصْنٍ لِغُصْنٍ ، حتَّى اختَفَى .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « يَبْدُو لِى أَنَّكُم صَيَّادُون ! ».

أَجَابَهُ أَحَدُهُمْ : « نَعَمْ .. ونَحنُ نَعِيشُ فى هَذِه الغَابةِ ، ولا يُمكِنُ أَنْ يَعِيشَ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِين أو ثَلاثِين مِنَّا فى مَكانٍ وَاحِدٍ .

ونَحْنُ نَنْتَقِلُ عَلَى الدَّوامِ ، لِلبَحْثِ عن الطَّعامِ ولا نَزْرَعُ شَيْئاً ، ولَكِنَّنا نَجمَعُ الفَاكِهَةَ البَرِّيَّة ونَاكلُ أىَّ حَيوانٍ نَصْطَادُه ، ولا نَسْتَعِينُ فى صَيْدِنا بِالكِلابِ لأَنَّنا مَهَرَةٌ فى الصَّيْدِ بِهَذِهِ الأَنابِيبِ ».

قَالَ مُحَمَّدٌ : « ولَكِنْ كَيفَ تَحْصُلُونَ عَلَى الأَوانِى الحَدِيدِيَّةِ والفُئُوسِ والسَّكاكِينِ ، وَهِى لا تَنْمُو فى الغَابةِ ؟ ».

أَجَابه الرَّجُلُ : « نَشْتَرِيهَا مِنْ قَومٍ آخَرِينَ يَصْنَعُونَهَا ، وَهُمْ يَعِيشُونَ فى نَاحِيةٍ أُخْرَى مِنَ الغَابةِ ، وإِذَا شِئْتَ رَافَقْتُكَ إِلَيهِمْ لِتَرَاهُمْ » .

قَالَ مُحَمَّدٌ :

« كَـلاَّ !! شُكْراً !! فَلَيْسَ عِنْدِى وَقْتٌ ، وقـد تركتُ (الْيَاكَ) بِمُفْرده علَى السَّفينة ، وهُو يَنْتَظِرُنى » .

سَأَلَ الرَّجُلُ : « الْيَاك ؟ ما الْيَاك ؟ » .

أجَابَ مُحَمَّدٌ :

« إنَّه نَوعٌ مِنَ الثِّيران ، يُسَمَّى « الثَّورُ الخَوَّارُ » ؛ لِكَثْرَةِ ما يُحْدِثُه مِنَ الضَّوْضَاء ، ولَهُ شَعْرٌ طَوِيلٌ يَتدلَّى علَى جَانِبَيْهِ ، حتَّى يَصِلَ إلى الأرضِ ، وسَأَعُودُ بِه إلَى وطَنِه » .

تَركَ مُحَمَّدٌ جَماعَةَ الصَّيَّادِين وأسْرَعَ إلى السَّفينةِ حَيثُ قَابَلَ (الْيَاكَ) فَقَالَ لَهُ :

« والآنَ ! أنتَ آخِرُ الحَيواناتِ ! وبما أنَّنى لا أعْرِفُ الطَّرِيقَ ، فَعَلَيْك أنْ تَقُودَ السَّفينةَ » .

قَالَ الْبَبَّاكُ :

« هُنَا الْمُشْكِلَةُ !! فَـلاَ أنَا ، ولا أَنْتَ نَسْتَطِيعُ الذَّهابَ إلَى وطَنِى بالسَّفينةِ ؛ لأنَّ بِلادِى بَعِيدةٌ عن البَحْرِ ، والطَّرِيقُ إلَيْهَا صَعْبٌ جِداً ، وعلى أيَّةِ حَالٍ .. اذْهَبْ ، ونَمْ .. حتَّى أُنادِيكَ » .

حَيَّا مُحَمَّدٌ صَدِيقَه ، وذَهَبَ إلى مَخْدَعِهِ (مَكانِ نَوْمِهِ) ، حَيثُ اسْتَغْرَقَ فى النَّومِ .. ولَمْ يَسْتيقِظْ إلاَّ عِنْدما صَاحَ الْبَبَّاكُ :

« لَقَدْ وَصَلْنا إلى الشَّاطِئِ .. والآنَ أَحْمِلُكَ إلَى مَوْطِنِى ».

الناشـــــر : دار الرشـاد
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٨٢٨٥ / ٩٨
الترقيم الدولى : 8 - 71 - 5324 - 977
الطبـــــع : عربية للطباعة والنشر
العنـــــوان : ٧ ، ١٠ ش الـلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : أرمس
العنـــــوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة
تليفـــــون : ٣٥٦٤٤٠٤
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م